

محاذراً ان يلمحني احد زملائي، و دسستها في جيب صداري بكل عناية فكان اول عمل اخرق ارتكبته، مرت عليّ ساعتان او ثلاث وانا اقلب الامر من شتى وجوهه. وفيما انا كذلك اذا بي ارى بواباً ينطلق الى غرفة الحرس مبهور الانفاس طائر اللب قائلاً: ان امرأة قتلت في غرفة المصنع التي يجري فيها صناعة السيكاير ويطلب قدوم الحرس حالاً. فامرني قائد الحرس ان استطلع جلية الامر، فاخترت جنديين وذهبتنا. فماذا رأيت؟ تصور ياسيدي حشداً يربو على المائتين او الثلاثمائة من نساء لا تكسو جسومهن الا غلاثل شفافة، او بأقل الثياب مما لا يستر الا ما يصح كشفه! وكلهن يتصايحن ويتنايذن ويتزاحمن ويشرن من الضجيج ما يزرى بهزيم الرعود والزلازل. وابصرت في احدى الزوايا، واحدة منهن مسجاة على الارض تتشحط في دمائها وفي وجهها جرحان متقاطعان محدثان بألة حادة. وشاهدت قرب المجني عليها زميلتين لها تعنيان بها، كما رأيت «كارمن» بين ايدي خمس او ست نساء قويات. كانت الجريحة لا تفتأ تصرح:

- ايتوني بكاهن يسمع اعترافي، اني سأموت!

اما «كارمن» فكانت صامته لاتني تصر باسنانها وتدير حدقتها كالعظاءة وسألت: «ماذا حصل»؟ لكن عبثاً حاولت معرفة الحقيقة لان النسوة كت يتكلمن جميعاً في آن واحد. واخيراً علمت ان المجني عليها كانت تفخر بانها تملك من المال ما تستطيع به شراء حمار من سوق «تريانا» فردت عليها «كارمن»

وهي المعروفة بسلاطة اللسان «أها؟ اذن لن يتبقى لديك ما يكفي لشراء مكنسة!» فاحتدمت الاولى غيظاً لهذا التعليق الاخير الساخر، ربما اعتبرت ذكر المكنسة ماساً بكرامتها، او لعل لهذا التعريض اصاب منها موضعاً حساساً.. فجاوبتها بقولها: انها ليست خبيرة بالمكانس اذ لم يكن لها شرف الانتماء الى معشر العجر وهي بعد ليست بنت الشيطان، وانه لن يمر بالانسة طويل زمن حتى تتعرف بشخصية الحمار لما يرسلها حاكم المدينة في (نزهة خلوية) وخلفها تابعان قويان يذبان عن وجهها اسراب الذباب! فاجابت «كارمن»:

- اما عما يخصني، فلاجعلن من وجنتيك مزيلة تحط عليها الذباب وتمتص من رحيقها، اني لاشعر برغبة في رسم مربعات داما^(٢٣) عليها.

فالتحمتا وبدأ الكر والفر وشقت كارمن خد الفتاة بجرح شبيه بصليب القديس اندراوس، مستعملة السكين الذي تقطع به اعقاب السكاير. كانت الجريمة مشهودة فامسكت بمعصم «كارمن» وقلت لها بأدب:

- عليك بمرافقتي ايها الاخت.
فصعدتني بنظرة من سبق له معرفتي وقالت مستسلمة:
«فلنذهب اذن. اين ملاءتي؟»

٢٣- في اسبانيا، تظلي مربعات «الداما» باللونين الاحمر والابيض والداما لعبة معروفة (المؤلف)

جيء بها بالملاءة فنشرتها على رأسها واخفت كل وجهها ما خلا احدى عينيها النجلوين، وشرعت تتبع رجليّ، طائعة كالحمل الوديع. وعندما مثلنا امام قائد الحرس وجد ان القضية خطيرة وامرنا ان تقتادها الى السجن. فوضعتها بين حارسين وسرت انا في المؤخرة باعتباري عريف الدورية واتجهنا الى المدينة. ظلت العجربة صامتة حتى وصلنا شارع «ال شعبان» والاسم على المسمى، ولا اخالك تجهل منعرجاته ومنعطفاته. وهناك بدأت بتنفيذ خطتها، فازاحت ملاءتها جانباً، وارختها على كتفها، وادارت جذعها عليّ لتريني وجهها الفاتن المغربي، وقالت: «الى اين انت سائر بي يا ضابطي؟»

- الى السجن ياطفلتي المنكودة.

كانت اجابتي رقيقة على قدر الامكان، وكما هو المفروض في الجندي حين يكلم سجينه وان كان انثى.

- رياه، ماذا سيحل بي؟ الا رفقاؤ بي ايها الضابط النبيل. انك لغض الالهاب، كثير الرقة، مرهف الاحساس. ثم اضافت بصوت خفيض: سهل عليّ الفرار، وسأطيك حجر البارلاجي bar-lachi^(٢٥) فتكون محبوب النساء». والبارلاجي ياسيدي هي من قبيل حجر المغنطيس، ويزعم

٢٥- ان كان لمعشر العجر بصورة عامة- ما يعتزون به ويفتخرون، فهو هذا الحجر بالاكيد. انهم يعزون اليه كل الخوارق، ومن حازه- على قولهم- لاخوف عليه من الحديد والرصاص والماء والنار، وان الموت ليقف حائراً

العُجْر بان من يعرف طريقة استخدامها يسهل عليه ممارسة
السحر. قَرَبُ الحُجْر من كأس خمر بيضاء ودع امرأة تشرب ما
فيها فاذا بها اسيرة حبك الى الابد!

اجبتها بكثير من الجد: «دعك من الهراء، فلا بد من ايداعك
السجن. تلك هي الاوامر، وعليّ تنفيذها».

فاتني اخبارك بان في السننتنا -نحن الباسكيين- ولكنة
يسهل على الاسبان تمييزنا بها، فاذا استبد بنا الغيظ او ارتج
علينا، فقليل منا من يستطيع السيطرة على لسانه ولا بد ان
يتفوه ولو بعبارة «بأي جاوني B,ai Jaone» (اي: نعم ياسيدي)
وهكذا سهل على كارمن معرفة وطني من لكتني، وتعلم ياسيدي
ان العُجْر قوم رحل لاوطن لهم دائم، لا يستقرون في بقعة حتى
ينتقلوا الى اخرى. وهم يتكلمون بمختلف اللغات، ومعظمهم
قضي في البرتغال وفرنسا والاقاليم الشمالية من قطلونيه زمناً
طويلاً، هم بواقع الحال في كل مكان بحيث يتعذر تمييزهم عن
بقية المواطنين حتى لو كانوا بين الانكليز او المغاربة، اذ يسهل

= وهم ينسبون اليه كرامات عجيبة ومقدرة فذة في اثاره كوامن الحب. فهو عند
العرفات العجريات ثمين وهن مصدره. هاته النسوة، لا يعدن اشخاصاً من
الجنسين بدرجة من الخور النفسي او الحطة، ان يقبلوا على استعمال ثمرة
شعواذتهن بتركيب «جرعات الحب، والخلاصات المستقطرة». اما المغنطيس
عندهم فحقيقة لا مراة فيها، وهم يثقون به ثقة عمياء (انظر كتاب الزنگالي
لجورج بورو وهو بحث عن العُجْر في اسبانيا) لذلك كانت الرشوة التي
عرضتها كارمن على دون خوزيه ليست زهيدة بنظرها. (المؤلف)

عليهم التحدث بلغة هذين الشعبين. لذلك كانت كارمن تتقن لغة
الباسك، حيث وجدتها تقول فجأة:

- يا شقيق الروح، ألسنت من بلدي؟

ان لغتنا ياسيدي - بدرجة من الروعة والسحر، حتى ان قلوبنا
تهفو حين نسمعها في بلاد الغربية.

- آه لو قيض لي معلم اعتراف^(٢٦) من ابناء جلدتنا!

قالت ذلك بصوت يسيل رقة وعذوبة بعد فترة من الصمت.

فأجبتها بالباسكية ومشاعري تائرة لسماعي لغة الوطن:

- اني من «ايلزوندو»

- وانا من «ايتجالار» (وهي بقعة تبعد زهاء اربع ساعات

سيراً من مسقط رأسي)، خطفني الغجر وجاءوا بي الى

اشبيلية، فاشتغلت في المصنع لاجمع مالاً كافياً اعود

بفضله الى موطني النافار، اعود الى امي العجوز البائسة

التي ليس لديها سواي غير بستان فيه عشرون شجرة تفاح

تعصر منها الخمر. آه كم اهفو الى بيتنا، الى الجبل الابيض

القائم امامه؟ لقد شتمني واهنني لانني اجنبية لا من

مواطناتهن المحتالات بائعات البرتقال الخمج.

كلهن عاديّني، تباً لهن من عاهرات.. قلت لهن ان

جعجعتهن وحناجرهن الاشبيلية لن تخيف صبياً من

٢٦- لكل مسيحي كاثوليكي -كاهن- اعتراف خاص به. يفضي اليه سراً
بخطاياهم فيعزها له لانه مخول دينياً.

صبياننا لابسى البيريه الزرقاء وحاملي الدبوس الحربي
القوي، ايه يا رفيقي يا صديقي الا تساعد مواطنة لك
بشيء؟

كانت ياسيد تكذب كشأنها على الدوام وانا اشك في انها
صدقت مرة واحدة في حياتها. يا للفتاة! لقد كنت اصدقها،
واعزها كثيراً. كانت تتكلم الباسكية بعجمة وبمشقة، ومع ذلك
فقد صدقتها حين زعمت لي انها نافارية، غافلاً عن شكل عينيها
-فقط! ولا اذكر فمها وقسمات وجهها التي تنم عن انحدارها من
اصل غجري صميم. كنت مسحوراً مفتوناً، فلم اعبأ بشيء..
وازنت الامر بيني وبين نفسي هكذا: لو ان الاسبان قالوا سوءاً
عن بلادي لما ترددت في جرح وجناتهم كما فعلت كارمن
بزميلتها. الحقيقة اني كنت كالشارب الثمل، فصرت اهرف واهذر
واظهرت استعدادي لتنفيذ ما شاءت فقالت لي بلغتي: لو انني
دفعتك فطرحتك ارضاً لما افلح هذا الجنديان القشتاليان في
امساكي».

اي وربي نسيت الاوامر، نسيت كل شيء واحببتها:
- كما تريدن يا صديقتي المواطنة، هيا حاولي، ولتكن
العذراء سيدة الجبل- في عونك.

كنا نسير آنذاك بمحاذاة زقاق ضيق وامثاله كثير في اشبيلية.
وعلى حين غرة، استدارت كارمن وضربتني بقبضتها على
صدري، فترنحت وهويت على الارض عامداً. وبقفزة واحدة

تخطئني وولت هاربة بعد ان كشفت عن زوج من السيقان..! انهم يلهجون بذكر السيقان الباسكية لكن ساقياها فاقتها جميعاً، كانتا بديعتي التكوين بقدمي هما سريعتان.

تحاملت على قدمي بسرعة، لكنني اخذت اتلكاً في البحث عن رمحي عامدا^(٢٧)، (وكان سقط على ارض الزقاق فسد مدخله سداً محكماً فاحتجز رفيقي عن مطاردتها وادراكها في اول الهرب) انطلقت اعدو وهما ورائي، لكن اين من اللحاق بها؟ كان ذلك مستحيلاً اذا اخذنا بنظر الاعتبار ثقل حركتنا، باسيافنا ورماحنا واحذيتنا الطوال. وقد ساعدها على الافلات، صياح الجيران وتضليلهم لنا. وهكذا اختفت السجينة باسرع من نطق هذه العبارة.

وبعد بحث واعادة بحث لم يسعنا الا ان نعود الى مقر الحرس وليس لدينا وثيقة بالتسليم من مدير السجن، ولكيما ينجو رفيقاي من العقاب قالا ان كارمن كلمتني بلغة الباسك ثم ليس من المعقول ان ضربة ضعيفة من يد فتاة تسقط رجلاً له مثل بنيتي بهذه السهولة - كل هذا جعلني موضع ريبة، بل موضع اتهام صريح فاخلي سبيل الحارسين ونزعت عني رتبتي العسكرية والقيت في غيابة السجن شهراً. كانت العقوبة الاولى التي توقع عليّ منذ تطوعي. وداعاً اذن لاشرطة رئيس العرفاء وهي الرتبة التي خلتنني فائزاً بها.

٢٧- كل الفرسان في اسبانيا انذاك كانوا يحملون رمحاً

انصرمت ايام سجنى الاولى كئيبة محزنة. لما تطوعت جندياً كنت أؤمل ان اصل الى رتبة ضابط على الاقل. فمواطني «لونجا» و «ومينا» وصلا الى رتبة «جنرال» و رقي (مابالانكارا) الزنجي وهو مثل مينا مهاجر من بلادكم، الى رتبة مقدم، وقد اتفق لي يوماً أن لعبت مع اخيه اشواطاً من «التنس» كان اخوه هذا شيطاناً باسكياً مثلي^(٢٨) اما الان فقد ضاع كل الزمن الذي قضيته في سلك الجندي بدون جزاء. قلت لنفسي:

- ها انا ذا الان، ملطخ السمعة، يجب ان اشتغل عشرة اضعاف ما اشتغلته حتى استرجع ثقة رؤسائي. لم جلبت على نفسي هذا القصاص؟ افي سبيل عاهر غجرية ضحكت عليّ وهزأت بي استغلتنني وهي الان تخطر في حي من احياء المدينة آمنة مطمئنة!

ومع ذلك لم افلح في طردها من خاطري. اتصدق ياسيدي؟ ان جوربيها الحريبين الكثيري الثقوب كشفت عنهما حين فرارها، ظلا ماثلين امامي؟ كنت ارسل بصري من قبضان السجن متطلعاً الى النساء السائرات في الشارع، فلا اجد مشبهاً قط ببنت الشيطان الصغيرة تلك فانثني كارهاً لاضم زهرة الاقاحي التي

٢٨- ليس في العالم شعب اكثر فخراً وغوراً من الباسك، لكنه فخر ديمقراطي، فليس بينهم نبلاء، وهم لايعترفون برئيس، وان افقر سائق عجلة اشد كبرياء من حاكم طولوزا نفسه، فهو يقول: «انه اقوى نفوذاً مني ولكننا لانتفرق في دوحه العليا وعراقة الاصل. وقد اصير يوماً ما حاكماً مثله (جورج بورو من كتابه: التوراة في اسبانيا). [معلق فرنسي]

رشقتني بها، واتنشق بها، عبيرها الزكي الذي بقي فيها وان ادركها الذبول. ان وجد ساحرات في الدنيا فالفتاة واحدة منهمن! وفي يوم ما، دخل علي السجنان برغيف من خبز «الكالا»^(٢٩) قائلاً:

- دونك، دونك ما ارسلته لك قريبتك.

تناولت الرغيف وقد اخذ مني العجب مأخذه، اذ كنت في اشبيلية وحيداً لا قريب لي فيها، فتساءلت وانا اتطلع الي الرغيف، لعل السجنان اخطأ بي؟ لكن الرغيف كان شهياً زكي الرائحة فقررت اكله وعدم اشغال نفسي في التحقيق عن مصدره او مرسله. وفيما انا احاول كسره اصطدمت مبراتي بشيء صلب، فاخرجته فاذا هو مبرد انكليزي الصنع صغير الحجم وضع في الرغيف قبل خبزه. ووجدت كذلك قطعة ذهبية من فئة الريالين. والحريه هي اغلى الاشياء عند العجر، فهم لا يترددون من احراق مدينة برمتها على ان لا يحبسوا يوماً واحداً. لكن هذه الفتاة عظيمة الدهاء، واسعة الحيلة، فقد استطاعت ان تضحك على اذقان السجنان وتسخر من عقولهم برغيف! لن يصعب علي ان اقطع بهذا المبرد الصغير اغلظ القضبان في ظرف ساعة ولن اعدم بالريالين استبدال بزتي العسكرية باخرى مدنية عند بائع

٢٩- الكالا دي لوس باناديروس، مدينة تقع على فرسخين من اشبيلية وهي مشهورة بصنع ارغفة لذيذة، ويقال ان لذة خبزها هذه اتتها من مائها العذب، وهي تصدر الي اشبيلية يومياً مقداراً كبيراً من هذه الارغفة (المؤلف).

المستعمل من الثياب. الا فكر في رجل كانت احب الرياضات له،
هي سرقة بغاث النسور من اعشاشها القائمة على ذرى الجبال
الشاهقة الصخرية، افيصعب عليه القفز الى الشارع من ارتفاع لا
يزيد عن ثلاثين قدماً؟ كنت اذ ذاك، متمسكاً بالشرف
العسكري، والفرار من الجندي في اعتقادي عار واي عار.
مع ذلك فقد اثر في نفسي رمز الذكري والاعتراف بالجميل.
ان السجين ليدركه الفرح اذ يعلم بان لديه في الخارج من يديم
التفكير فيه. ولقد انتابني بعض الكدر لرؤيتي النقود ووددت لو
تسنى لي اعادتها. لكن كيف السبيل الى دائني؟
بعد انتهاء مراسم تجريدي من رتبتي، خيل لي ان الدهر قد
افرغ جعبته من العذاب المدخر لي ولم يعد لديه ما يصيبني به وما
كنت ادري ان القدر قد حفظ لي آلاماً اخرى؟
كان ذلك بعد اخلاء سبيلي من السجن مباشرة وتعييني
حارساً كأبي جندي آخر. انك لاتتصور مبلغ الالم الذي يكابده
الانسان ذو الحس المرهف في هذا الموقف. كنت افضل عليه الرمي
بالرصاص والله! في الماضي كان يتاح لي على الاقل ان اسير
مختالاً على رأس كوكبة من الفرسان، فاشعر -حين تنتهبني
الابصار- بانني شيء مذكور.
عينت حارساً على باب دار «المقدم» وكان شاباً في مقتبل
العمر موفور الرزق، حسن الخلق، يميل الى الانس والطرب، وكان
الضباط جميعاً مدعويين الى داره بينهم عدد من المدنيين وقليل